الدوحة
ملتقى الإبداع العربي و الثقافة الإنسانية

العدد59 سبتمبر 2012

خالد حافظ.نبوءات وخوف

في معرضه الذي أقامه أخيراً في قاعة سفر خان بالقاهرة، يواصل الفنان المصري خالد حافظ سرد حكاياته تلك تحت عنوان «عن الأكواد والرموز، وأعراض ستوكهولم».. يلمس العنوان جانباً من تركيبته الإبداعية التي تميل على نحو ما إلى الرمز، فهو مولع بالرموز والعلامات، يستحضرها من فوق جدران المقابر القديمة، أو يستدعيها من على صفحات المجلات والصحف. رموز من الشرق والغرب، ينثرها على سطح اللوحة، ليعيد صياغتها من جديد، ويلقي عليها شيئاً من الدهشة. أما أعراض ستوكهولم، فهي أعراض نفسية تصيب الرهينة وتوقعها في عشق آسرها. حالة يرى الفنان أنها تشرح بعضاً من جوانب المشهد المصري الآني. فقد أدهشته قناعات البعض ممن يعرفهم، حول مجرى الأحداث، وتفضيلهم لرموز النظام البائد حين جاءت لحظة الاختيار تحت ضغط مخاوفهم الشخصية من صعود التيار الديني، ذكره هذا الأمر بذلك العَرَض المعروف عند دارسي الطب النفسي علم باسم «أعراض ستوكهولم»، ذلك العرض الذي يدفع المرء إلى الارتماء في أحضان جلاديه.

رموز وعلامات كثيرة قدمها خالد حافظ في معرضه، رموز قديمة، لكنها لا تنفصل بأي حال من الأحوال في سياقها على مساحة اللوحة عن المشهد الآني.. صورة أم كلثوم، وهي تشدو، تذكرك بصوتها الذي كان يعلو في الميادين، تتحرك الصورة على خلفية من اللون كالفسيفساء، يستدعي بها الفنان صورة الحشود التي امتلأت بها الميادين، على اختلافها وتناغمها ورهبتها في القلوب. صورة أخرى لـ «حتحور» ربة الموسيقى وحامية الموتى عند قدماء المصريين، وقد استُبدل تاجها الذي يزينه قرص الشمس، بآخر كان يزين رأس «ماعت» ربة العدل والحق، تتقاطع صورة «حتحور» مع مسارات بشرية تتكرر في لوحات حافظ، مسارات لبشر يرتحلون من مكان إلى مكان، وينتقلون من حال إلى حال. يؤكد حافظ عبر مشهد الترحال هذا - كما يقول - على مفهوم الهجرة بأشكالها المختلفة، المكانية، كالانتقال طوعاً أو قسراً من مكان إلى

مكان، أو المعنوية، حيث الحرية والعدل والمساواة.

المعرض هو واحد من مجموعة معارض تبنتها القاعة منذ اندلاع الثورة المصرية بغرض التوثيق، أوالاحتفاء بالحالة. ويمثل معرض الفنان خالد حافظ جزءاً من هذا الاحتفاء، غير أن تجربته هنا تبدو أكثر رغبة في استلهام جوانب أعمق، أكثر من كونها توثيقاً مباشراً للحظة الراهنة.

فخلال الشهور الماضية، ابتعد حافظ كما يقول عن زخم الشارع والميادين. كان يريد الابتعاد عن تلك الرؤية المباشرة للأحداث لعله يستطيع أن يرى أبعد، وقد أتاح له هذا الابتعاد بالفعل نوعاً من الرؤية البصرية غير المباشرة للأحداث. أتاح له فرصة للتأمل من جديد.

يحاول حافظ البحث عن تفسيرات مغايرة للصورة النمطية وإيحاءاتها الذهنية. يحاول في أعماله توثيق الحاضر، مستحضراً رموز الماضي. يمزج بين خيالاته المعاصرة، وبين حكمة الأسلاف ورؤيتهم لتلك الصورة نفسها. ينظر حافظ إلى كل هذه المستويات المرحلية للصورة كما عرفها البشر منذ القدم، وحتى عصر الصورة المطبوعة والكاميرات الرقمية والفضائيات بنفس القدر من الاهتمام والقدرة على التحليل والمواءمة فيما بينها، يزيح بعضها، ويعيد البعض الآخر إلى الصدارة، كما يحذف ويضيف. يمزج بين هذه المستويات والقوالب معاً فيخلق شكلاً جديداً.

كانت الصورة مرادفة دائماً للحضارة المصرية القديمة، وأحد أهم تجلياتها وعبقريتها، هذه الصورة السحرية المنقوشة على التوابيت في عتمة المقابر الفرعونية، أو المحفورة على جدران المعابد، والمرسومة على أوراق البردي.

توقف حافظ أمام هذه الصورة الأولى طويلاً، وراح يراجع قناعاته من جديد، لينتابه شعور طاغ بالانتماء إلى هذا السياق والمعالجة الفنية لتلك الصورة المشرقة عبر القرون. وفي لحظة مفارقة، أمسك حافظ بأطراف الماضي والحاضر، وضعهما أمامه على مساحة الرسم. وبنفس المنطق الذي كان ينشئ به المصري القديم لوحاته الجدارية، راح يرسم لوحاته، أو جدارياته هو الآخر.

يذكرنا سطح اللوحة في أعمال خالد حافظ بجدارية فرعونية ملونة. تتحرك عناصرها صعوداً وهبوطاً.. تُبعث على سطحها صور الآلهة القديمة، وتتوالد الكائنات.. كائنات خرافية، تحيط بها وجوه نألفها؛ أم كلثوم.. فتيات الإعلان.. رجال ذوو أجسام رياضية، وعناصر أخرى، كلها تتبع نفس المنطق البصري.

درس الفنان خالد حافظ الطب في جامعة القاهرة، ثم اتجه إلى دراسة الفن بالقسم الحر في كلية الفنون الجميلة حيث تتلمذ على يدي كل من الفنان حامد ندا وزكريا الزيني. وبعد انتهائه من الدراسة سافر إلى فرنسا حيث أقام هناك لعدة سنوات. تتعدد وسائط خالد حافظ وتتنوع ما بين التصوير والرسم والفيديو والتجهيز في الفراغ، وكانت آخر مشاركاته الرسمية في بينالي القاهرة نهاية عام 2010.. حيث قدم حينها تجهيزاً في الفراغ بطول سبعة أمتار. كان العمل لافتاً إلى حد كبير، ملأه برسوم كثيرة لجنود وآليات عسكرية زين بها الجدران.

شكل خالد حافظ لنفسه طريقة خاصة في بناء العمل الفني وصياغة عناصره بشكل أقرب إلى طريقة الفنان المصري القديم في الرسم على حوائط المعابد والمقابر.. تكرار العناصر في مستويات مختلفة، وغياب المنظور، وطغيان الرمز، وتحكمه في أحجام الأشخاص والعناصر المرسومة. استوعب الفنان طريقة المصري القديم في بناء اللوحة الجدارية، وراح يشكل بها حوائطه الخاصة، وحكاياته المتعلقة إلى حد كبير بنظرته إلى العالم كما يتشكل أمامه من دون حواجز أو حدود فاصلة. فجدران حافظ الملونة، تتماهى على سطحها الحدود بين الثقافات، ويختلط فيها الحاضر بالماضي، ليخلق أمامنا عالماً من الدهشة والتأمل.

يقول حافظ : امتدت فترة إقامتي في فرنسا لثلاث سنوات كاملة، كنت أرسم خلالها رسوماً تجريدية، كنت في ذلك الوقت، أبحث عن شيء يميزني، ولم أجده إلا بعد عودتي مرة أخرى إلى القاهرة، فقد وجدت في رسوم المصريين القدماء حالة متفردة، غاية في القوة والتأثير، حالة ليس لها علاقة بمفاهيم الفن والتصوير التي درسناها في معاهد الفنون المعتمدة عادة في مناهجها على النموذج الغربي. لقد عدت إلى فكرة تنسيق السطح كما عرفه المصري القديم.

يضيف حافظ: لسبب ما لا أعرفه كنت سعيداً بهذا الأمر، وخلال الأعوام التي تلت عودتي إلى مصر كنت أراوح ما بين المفهوم الغربي والمصري في بناء اللوحة.. كنت أقتطع صوراً وعناصر من الإعلان المعاصر وأخرجه من سياقه كي أضعه في سياق جديد، مستعيناً بعناصر حيوانية، ورموز مصرية قديمة، محاولاً في نفس الوقت من خلال السطح كسر هذا الحاجز ما بين الشرق والغرب، أو بين الماضي والحاضر في آن معاً، وكنت في ذلك كمن يمارس نوعاً من اللعب، بتحطيمي لتلك الحواجز، وترقبي لما سيحدث أو ما سينجم من اختلاطها واقترابها في حيز اللوحة.

جميع الحقوق محفوظة لمجلة الدوحة